obeikandl.com

obeikandl.com

سيكولوچية العدوان والخنوع

الإنسان فى علم النفس هو سلوك يقوم به الفرد متضمناً انفعالاته، وأفكاره وإدراكه، ونشاط متصل من فعل/ رد فعل يتخذ فيه قراراته ، وتكون شخصيته التى يرتبط بها، أو سيرته الذاتية التى يتعرف بها الإنسان على ذاته ويتعرف الآخرين عليه . . فالإنسان تحكمه غرائز موروثة عبارة عن استعداد فطرى لا يحتاج إلى تعلم، يدفع الفرد إلى القيام بسلوك خاص، وكذلك تراكم تجارب اكتسبها الإنسان خلال رحلة حياته من البيئة المحيطة التى تشمل الطبيعة وأفراد آخرين.

اختلف علماء النفس فى عدد الغرائز، ولكن فى هذا المجال يمكن تصنيف بعضها بالغرائز التى تدفع الإنسان إلى السلوك العدوانى، مثل غرائز المقاتلة، والغضب والنفور والسيطرة، والتملك، وغرائز أخرى قد تدفع الإنسان إما إلى العدوان أو إلى الخنوع مثل غريزة حب البقاء ، والغريزة الجنسية، فالإنسان قد يصارع إذا وجد نفسه مهدداً بالموت أملاً فى إنقاذ نفسه، وقد يستسلم إذا وجد أن الاستسلام ينجيه . . أيضاً غريزة الجنس قد تدفع الإنسان إلى العدوانية إذا لم تشبع حاجاته الجنسية، أو قد يسلك السلوك الخضوعى لإشباع حاجته الجنسية أو لاستمالة الطرف الآخر السادى.

قد تتعدل الغرائز وتتحول إلى ميول مركبة وعواطف، فعاطفة الحب ليست غريزة ولا ميلا فطرياً، ولكنها عاطفة مركبة تستثار من الغريزة الجنسية، وغريزة التملك ، وغريزة حب الاجتماع، يعلق بعض علماء النفس أهمية خاصة للعواطف إذ يعتبرونها القوى التى تدفع مباشرة إلى السلوك.

وجه علماء الأنثربولوچيا وعلماء الاجتماع النقد لنظرية الغرائز فقد كشفت دراسات الأنثربولوچيا عن اختلاف السلوك لنفس المواقف بين الثقافات المختلفة، فالخصومة لا تحسم عند بعض قبائل الهنود الحمر فى كندا على المحيط الهادى بالاشتباكات والمعارك، ولكنها تحسم بعقد حفل يتبارى فيه الخصمان بالتنازل عن ممتلكاتهم ، ويعتبر فائزا من يتنازل عن أكبر قدر من الممتلكات.

إن حاجات الفرد تتغير مع مجال الزمن الخاص بالفرد، فقد يستلم الإنسان لمن يحبه ويخضع له ، وبمرور الزمن وباكتساب تجارب أخرى مختلفة قد يثور نفس الإنسان على نفسه أولاً ثم على الطرف الخاضع له، أى على من يحب، وبمعنى آخر قد يثور من رضى بعبوديته بعد فترة من الزمن قنع فيها بوضعه واستسلم لقدره كعبد، وعلى ذلك فقد تحول علماء النفس إلى دراسة الدافع (Motive) الفطرى منه والمكتسب.. يشمل تعريف الدافع الحاجات والحوافز، والمثيرات والبواعث، والعادات، والأهداف، والانفعالات.. إلخ.

فالدافع هو الذى يحرك الفرد فى اتجاه سلوك معين، فالحرمان من الطعام قد يدفع الفرد إلى البحث عن الطعام، أو العمل للحصول على مال لشراء الطعام، أو السلب والنهب لإشباع جوعه.

صنفت الدوافع إلى دوافع أولية ودوافع ثانوية، أما الدوافع الأولية فهى الدوافع التى لم يكتسبها الفرد من بيئته عن طريق التعليم والخبرة والمران وإنما هى استعداد يولد الفرد بها، لذلك تسمى أحياناً بالدوافع الفطرية ويعتمد هذا النوع من الدوافع على الحالات الجسمانية (الفسيولوچية). درس علماء النفس الدوافع الأولية من ثلاث اتجاهات ، الاتجاه الأولى خاص بالناحية الفسيولوچية التى تحدد التغيرات الكيميائية والعضوية والعصبية داخل جسم الإنسان، ووظيفة الفرد فى توجيه النشاط، ففى حالة الجوع مثلاً تحدث تقلصات وانقباضات فى المعدة ، وتنتهى هذه التغيرات الفسيولوچية بالشبع.. أما الاتجاه الثانى فهو خاص بالناحية الشعورية، فالإنسان الجائع يصف شعوره الذى يعبر عن الجوع مثل إحساسه بفراغ فى معدته أو يشعر بتقلصات الجوع.. ويعتبر السلوك الظاهرى هو الاتجاه الثالث الخاص بتصرفات الإنسان الظاهرية، فقد يميل البعض إلى السلوك العدوانى عند الجوع، هذا السلوك هو الظاهر للآخرين الذين قد يقدروا الموقف لمعرفتهم شعور وإحساس الجائع، أو قد لا يعلموا سبب السلوك لجهلهم بالدافع.. إن الدوافع الأولية بصفة عامة تعتبر دوافع مشتركة بين جميع البشر فهى جزء من كيانه البشرى.

تختلف الدوافع الثانوية عن الدوافع الأولية بأنها لا يشترك فيها جميع البشر، فهى دوافع شخصية، خاصة بذات الفرد دون غيره، وتعتبر هذه الدوافع السبب فى اختلاف شخصية الإنسان. . ومن أمثلة الدوافع الثانوية، العواطف والعقد النفسية، فالطفل الذى ينشأ فى بيئة عدوانية أو فى داخل أسرة تتسم بالعنف والعدوان تتكون لديه عبر السنين دوافع للعدوان.

يطلق علماء النفس على الدوافع الأولية، اصطلاح الدوافع الفسيولوچية، أما الدوافع الثانوية فهى دوافع نفسية (سيكلوچية) . . كما تم تقسيم الدوافع الأولية فإن الدوافع الثانوية يمكن تقسيمها إلى دوافع نفسية اجتماعية خاصة بالميل إلى الاجتماع والميل إلى السيطرة وتأكيد الذات . .إلخ، والقسم الثانى خاص بالدوافع الثانوية الفردية الشخصية وهذا القسم يشمل الحاجة إلى الحنان، والنجاح، والاستقلال، والميل إلى التملك. . . إلخ.

فى جميع مراحل رحلته يعيش الإنسان فى مجتمع ما، بداية من الأسرة، ثم المدرسة، فالعمل، فأسرة جديدة عند الزواج، كما أن الإنسان عادة ما ينتمى إلى مجموعة خارج مجال العمل والأسرة كالحزب أو النادى أو شلة أصدقاء، وفى ظل الميل إلى الاجتماع تنمو بعض الميول الاجتماعية لتحقيق الصلة بين الفرد وبين أفراد المجتمع، ومن هذه الميول: الاستهواء والمشاركة الوجدانية والتقليد. . يتمثل الاستهواء فى تقبل الفرد لأفكار معينة نابعة من المجتمع، دون أن يحاول تحليلها أو نقدها. . يكون الفرد أكثر قابلية للاستهواء عندما تكون معايير الحكم على الأشياء لديه ناقصة، فيتعذر عليه مراجعة ما يعرض عليه من أفكار أو أحكام، فيتقبلها كما هى بدون تفكير عقلانى. . أيضاً يميل الفرد إلى تقبل أى أفكار أو نصائح عندما يكون فى حالة من القلق والارتباك الذهنى أو عدم الرضا. . ورد فى كتاب "الدوافع النفسية" للدكتور مصطفى فهمى أستاذ الصحة النفسية بعض الأمثلة على الاستهواء مرتبطة بموضوعنا :

«بعد الحرب العالمية الثانية تعرضت بعض الشعوب المغلوبة إلى حالة من عدم الأمن الاقتصادى والسياسى لدرجة أنها كانت تجد فى الدعايات التى كانت تقوم بها روسيا الشيوعية منقذا لها، يبعد عنها شبح الجوع والحرمان والفوضى والاستبداد. . وهذا ما حدث فعلاً فى بلاد كبولندا ورومانيا وبلغاريا، إذ استهوت هذه المبادئ والأفكار الشيوعية تلك الشعوب واستجابت لها دون نقد أو تفكير أو مقارنة بينها وبين مبادئ الشعوب الأخرى، ولقد استغل كل من هتلر وموسولينى هذا المبدأ فقاما بدعوتهما بقلب نظام الحكم فى كل من البلدين مستغلين حالة عدم الارتياح والقلق والارتباك الموجودة فى كل من الشعب الألمانى والإيطالى والناجمة من سلسلة طويلة من مفاسد الحكم والارتباك السياسى فى كل من البلدين. . ومن بين الوسائل التى تشغل أخيلة أمثال تلك الشعوب القلقة المضطربة، النداءات المكتوبة أو الشفوية، فهى تساعد على إبراز ونشر حالة عدم الرضا والتذمر». يمكن ارجاع الاستهواء أيضاً إلى سيطرة العقائد والأفكار الثابتة (Fixed Mental Context) على تفكير الفرد، وهذا يفسر سهولة استهواء الفرد من المدخل الدينى أو العقائدى للجماعة.

تعتبر المشاركة الوجدانية من العوامل التى تمكن الفرد من ملائمة نفسه مع البيئة التى يعيش فيها، وتخضع المشاركة الوجدانية إلى النظام السائد فى المجتمع، فقد تسيطر روح العنف والعدوان على المجتمع، وقد يسود الخنوع/ الخضوع والاستسلام فى مجتمع آخر، فالإنسان منذ طفولته يكتسب السلوك العدوانى أو الخنوعى من البيئة المحيطة كنوع من المشاركة الوجدانية وحتى لايشذ عن المجموع. يعتبر علماء النفس الشعور بالذنب (Sense of Guilt) عاملاً من العوامل التى تدفع الفرد إلى مشاركة غيره وجدانياً، ولكن هذه المشاركة تنعدم عند الشعور بالخوف وعدم الأمان. . تزيد المشاركة الوجدانية مع الأقارب والأصدقاء وزملاء العمل والسكن، كما تتزايد عند النساء لسهولة إثارتهن عاطفياً.

يميل الإنسان عادة إلى التقليد لما فيه تيسير لقضاء الحاجة وإشباع الرغبات والوصول إلى الأهداف بسرعة نسبية، ويعتبر التقليد وسيلة ناجحة للتعليم واكتساب الخبرات والمهارات. . يختلف التقليد من تقليد ناسخ (صورة طبق الأصل أو تقليد

أعمى) وهو التقليد بدون تفكير أو مراجعة، والتقليد المعدل ليناسب إمكانيات الفرد وثقافة البيئة التى يعيش فيها، فإن قام الإنسان الشرقى فى تقليد الأمريكى فى مظهره ولبسه سيواجه انتقادات عديدة من المجتمع الشرقى المحافظ وسيتحول إلى إنسان شاذ عن المجتمع الذى يعيش فيه خصوصاً إذا كان هذا المجتمع متزمت وغير ليبرالى.

يعرف التملك بأنه الدافع أو الرغبة فى الحصول على شىء مفيد، وهو استعداد فطرى لدى الطفل الذى ينشأ فى مجتمع يتعلم منه أن له حق تملك بعض الأشياء دون البعض الآخر.. وعندما يكبر الطفل ويتعرف على فوائد الامتلاك فإنه يبذل جهده إما بالإغراء والمحايلة أو بقوة المال والعدوان لأخذ بعض ما يمتلكه الآخرون، وكلما كبر الإنسان كلما أيقن وتأكد من زيادة احترام الناس له بزيادة من ممتلكاته وأمواله، كما يشعر الإنسان بمزيد من الحرية والسعادة عندما تنمو ممتلكاته وتكثر أمواله.. هذا هو إحساس السيد عندما يمتلك العبد فيتطلع إلى تملك مزيد من العبيد والجوارى.

دائماً يتطلع الإنسان إلى تأكيد ذاته ونيل التقدير والاحترام من الآخرين، كما يميل البعض إلى الزعامة والقيادة وإظهار السلطة على الغير، ويتمثل هذا فى انتهاز الفرص التى تسمح للبعض بإخضاع من هم أضعف منهم وإظهار النفوذ والسلطان للغير فيصدر الأوامر إلى مرؤوسيه فى العمل أو إلى أفراد أسرته.. قد لا يوجد هذا الدافع عند كل الناس كما تتغير شدته من إنسان إلى آخر.. وقد اختلف علماء النفس فى إذا ما كان هذا الدافع فطرى أو مكتسب، ولكن الأكثر اعتقاداً أنه مكتسب من الوراثة ومن البيئة أيضاً.

فى نهاية تحليل موضوع الدوافع يبرز السؤال الرئيسى فى موضوعنا عن أصل الدافع إلى العدوان والرغبة فى المقاتلة، وهل هى غريزة موروثة أو سلوك مكتسب من البيئة، من الأفضل فى هذا المجال أن نتركه للمختصين وأن نورد هذه الفقرة من كتاب الدوافع النفسية: « إن أصحاب مدرسة التحليل النفسى يفسرون السلوك العدوانى تفسيرات عدة، وأول هذه النظريات تلك التى تعتبر العدوان مرتبط بالنمو

الجنسى للطفل فى مراحله المختلفة ، ويأخذ هذا الميل إلى العدوان فى الوضوح فى المرحلة الأخيرة لظهور عقدة أوديب، والتى يجمع المحللون النفسيون على أنها من العوامل الهامة التى تعمل على نمو وتطور الميول العدوانية لدى الطفل. . أما النظرية الثانية فهى التى تعتبر العدوان وظيفة من وظائف الذات "EGO" تظهر بتأثير الإحباط "Frustration" ، فقد أدت البحوث فى ماهية الذات والدور الذى تقوم به لتحقيق رغباتها إلى اعتبار العدوان من وظائف الذات الفطرية لتحقيق حاجاتها التى تتعلق بحفظ الحياة وتحقيق الأمن. . ومن الملاحظ أن تلك الميول العدوانية لا تخرج إلى نطاق السلوك والأداء إلا بتدخل من البيئة أساسه العرقلة والإعاقة والإحباط، والنظرية الثالثة هى التى تعتبر العدوان تعبيراً عن غريزة الهدم ، فإن فرويد بعد أن عدل عن نظريته فى غرائز الذات «Ego Instincts» بادر إلى اعتبار كل الحوافز الغريزية نابعة من قوتين عظيمتين هما إرادة الحياة التى تتعلق بتحقيق الحاجات الحيوية وإرادة الموت التى تتعلق بتحطيم تلك الحياة، والمظاهر الجنسية المختلفة ما هى إلا تعبيرات عن إرادة الحياة، إن المظاهر العدوانية المختلفة هى مظاهر للتعبير عن قوة الهدم والتحطيم، وبجانب الآراء السابقة التى تدين بفطرية الميل إلى المقاتلة والرغبة فى العدوان، فهناك رأى آخر يقول إن العدوان يكتسب فى ظل البيئة التى يعيش فيها الفرد نتيجة احتكاكه بالجماعة التى يعيش بينها ونتيجة للسلسلة الطويلة للسلوك الإحباطى والقمعى الذى يتعرض له الفرد فى جماعته).

يرى بعض علماء النفس أن الجنين داخل رحم أمه يمر بتجربة الإحباط من خلال القيود المفروضة على حركته وفى حيز محدود لا يستطيع داخله أن يفرض حريته فى الحركة، ثم يبدأ الطفل بمجرد ولادته فى البحث عن التنفيس عن هذا الإحباط بالسلوك العدوانى نحو بيئته المحيطة التى تقيد سلوكه الفطرى كما قيدت حركته داخل رحم أمه قبل الولادة. . أيضاً عاش الطفل داخل رحم أمه فى بيئة دافئة مريحة لا يشعر فيها بالجوع أو بالعطش أو تغير درجة الحرارة، ثم يصاب الطفل بصدمة الولادة عند الخروج من جنة الرحم إلى واقع مختلف يشعر فيه بآلام والحرمان والاختلاف، من ليل ونهار، ومن جوع وشبع، ومن عرى والتحاف بملابس

وأغطية. . من الطبيعى والمنطق بعد خروج الطفل من جنة الرحم إلى واقع أليم أن يشعر بإحباط وعدوانية مكتسبة منذ لحظة خروجه إلى نور الحياة.

وفى اتجاه آخر، يرى أدلر أن المعالم النفسية للإنسان تتحدد من خلال الغايات التى يصبو إليها، وينبع ذلك من حاجته للتوافق مع البيئة التى يعيش فيها، فلو أن الغرائز والقوى الفطرية هى التى تحكم وحدها سلوك الفرد، لما استطاع أن يعدل من شخصيته خلال رحلته الحياتية. لقد ذهب أدلر إلى أن الغائية تسيطر على النفس البشرية.

أكد أدلر على أن كل الكائنات الحية تتميز بالحركة، وأن كل حركة لابد لها من هدف، وغاية يسعى الإنسان إلى تحقيقها. . فإذا كان الإنسان يتطلع إلى الراحة والرفاهية وإلى التملك والزهو، فأنه سيسعى لإيجاد إنسان آخر ليحكمه ويستعبده، ومن كان غايته العيش فى سلام دون نزاع أو قتال سيظل طوال عمره عبداً لغيره.

السيد والعبد، يمتاز السيد عادة بصفة العنف العدوانية أما العبد فيمتاز بالخنوع والاستسلام، وكل من الصفتين موجودتين فى الإنسان منذ الصغر، فقد يتسم الطفل بالعراك والسلوك العدوانى مع أقرانه أو قد يشب خاضع مستسلم للآخرين.

ينشأ الطفل العنيف ذو السلوك العدوانى عادة إما فى بيئة تلبى جميع رغباته وتدلله، وإما فى بيئة عدوانية ينتشر فيها العنف والصراع بين أفراد الأسرة، ولكن بالطبع يوجد استثناءات فى هذه القاعدة، فالعمومية لا تطبق فى المجال الاجتماعى أو النفسى.

إذا كان السلوك العدوانى يبدأ مع الإنسان منذ الطفولة ، فمن الخطر أن نحول الطفل إلى النقيض من خلال الوازع الدينى والعزف على أوتار تأنيب الضمير، ففى التغير الانقلابى يتحول الطفل العدوانى إلى خاضع لدرجة الانحراف مثل الانحراف العدوانى، فهو لا يجرؤ على الاستجابة العدائية أمام أذى حقيقى يلحق به، ولا يشعر بالإحساس العدوانى فى المواقف التى تتطلب منه الدفاع عن نفسه والزود عن حريته وذاته، بل إنه يستسلم ويتحول إلى خاضع، موجهاً كل الشعور العدوانى إلى

داخل ذاته، فيشب ضعيف الشخصية، خانع ومستسلم، هادماً لذاته، من السهل أن يفرط فى شرفه ووطنه.

يتحول الإنسان إلى عبد عندما يستسلم، ويسلم بخنوعه ، والدافع فى هذا الموقف الانهزامى الاستسلامى هو انفعال الخوف من فقد الحياة، وفى الطرف الآخر يكمن انفعال الغضب المسئول عن حمية الإنسان والحافز للصراع والقتال.

يستثير الانفعالات كل ما يواجه دوافع الإنسان الشخصية والاجتماعية من تهديد، وتدور هذه الدوافع حول تقدير الذات والأهداف الاجتماعية للفرد. اذاً تشابه الخوف والقلق من الناحية الفسيولوجية، حيث أن كلاهما يسبب سرعة دقات القلب والشعور بالفزع، إلا أن الخوف يتضمن نوعاً محدداً مادياً من التهديد، بينما يكون القلق أكثر عمومية للتهديدات الشخصية. وجد الباحثون فى علم النفس ان استجابة الفرد للموقف الذى ينطوى على التهديد تتوقف على التقدير الشخصى لطبيعة التهديد، فعند العراك مثلاً قد يستجيب شخص لتهديد الطرف الآخر إذا كان يحمل سلاحاً، فيستسلم بدون مقاومة، وقد يقاوم حتى إذا كانت فى المقاومة نهاية لحياته.

قد يتخذ التهديد الشخصى صورة إحباط لسعى الفرد أوالجماعة نحو هدف معين فيحدث الغضب والعدوان، كما هو فى حالة التهديد، فإن التقدير الشخصى للإحباط يعتبر عاملاً رئيسياً لشدة الانفعال الغضبى والدافع إما للعدوان أو السلوك السلبى من تبلد وعدم مبالاة، وفى كل من انفعال الخوف أو انفعال الغضب، يسلك الإنسان السوى سلوكاً هادئاً يسمح له التفكير فى حل المشكلة بدلاً من تبديد طاقاته الانفعالية فى نوبات غضب عدوانى، أو فى هروب خوفى أو استسلام، وقد يخسر فى كلتا الحالتين معنوياً ومادياً.

وإن كان العنف والعدوان يسيران فى نفس الاتجاه السلوكى لكن يوجد فرق بينهما، لقد وصف د. أحمد عكاشة فى كتابه عن علم النفس الفسيولوچى هذا الفرق: «يمكن اعتبار العنف هو نهاية المطاف لسلوك عدوانى مستمر، فنستطيع تعريف

العدوان على أنه عقد العزم والإصرار على مطاردة وملاحقة اهتمامات الفرد، أما العنف فهو ملاحقة هذه الاهتمامات بالقوة أو التهديد باستعمال القوة». أما تعريف د. أحمد عكاشة للقوة والفرق بينها وبين العنف: « القوة عبارة عن عدوان مضبوط محكم ومحدد فى الشدة له اتجاهه وهدفه الخاص، أما العنف فلا يمكن التنبؤ بمجراه أو بدايته ويتميز بتطرفه ، وأنماطه غير المنطقية، وهنا يمكن أن يضيع أو يختص الهدف والمؤثر الذى فجر هذا العنف ، فالسلوك العنيف عادة ما يكون دوافعه ضعيفة إن لم تكن معدومة، فهو سلوك تلقائى ، متكرر له طابع النزوة».

يشكل السلوك العدوانى خطورة على البيئة المحيطة للفرد من أسرة أو مدرسة أو مجتمع، فالإنسان العدوانى يأخذ بالقوة ما ليس له حق فيه، ويسبب الضرر المادى والنفسى للآخرين، أما الإنسان الخنوع ذو الشخصية المستسلمة لايسبب مشكلة اجتماعية فى نظر المجتمع المحيط حيث أنه لا يعتدى على حياة أو ممتلكات الآخرين أو حتى يعترض على مصالحهم، بل بالعكس فإنه دائماً مضحى وسلبى، فكثيرا ما ينال رضاء من حوله أو من يستفيدون من سلبيته وخنوعه. ولكن عندما ينتشر هذا الخنوع فى المجتمع ويعم الشعب كله يصبح هذا الشعب ذليلاً انهزامياً مستسلماً يمكن استغلاله واستعماره بل يمكن معاملته معاملة العبيد، فتخور قوى الشعب ويضمحل ذكاؤه وتقل ابتكاراته وينخر سوس الاستعباد فى عظامه فينهار المجتمع أو الشعب بأكمله ويتدهور اقتصاده ويصبح هذا الشعب تابع ذليل لأسياده.

فى أحيان كثيرة يتبادل السلوكان العدوانى والخنوعى عند الفرد الواحد، فعند موقف معين قد يكون الإنسان عدوانى ثم يتغير هذا السلوك فى موقف آخر إلى سلوك خنوعى.. تغير الدورة المزاجية فى سلوك الإنسان ما بين الانبساط والعنف (بطول ١٤ يوماً لكل حالة)، كما تغير الدورة الشهرية فى سلوك النساء بالميل إلى العدوانية والعنف، أما إذا وجد الفرد نفسه فى موقف ضعيف ويشعر بالضآلة بالنسبة لمن حوله فعادة ما يستسلم للسلوك الخنوعى.

تعتبر السادية والماسوكية من السلوك العدوانى والخنوعى لدى الإنسان ، فالسادية تعنى حب إيذاء الغير فيتلذذ الإنسان السادى عند تعذيب الآخرين أو عند رؤية الألم عندهم، ويعتبر منظر الدم من أكثر المناظر بهجةً واغتباطاً عنده، أما الماسكوية (المازوكية / الماشوسية) فهى الرغبة والرضاء عن تقبل الإيذاء من الآخرين. اقتصر السلوك السادى / الماسوكى على الناحية الجنسية فقط عند علماء النفس القدماء ولكن هذين السلوكين ينصبان أيضاً على جميع النواحى الاجتماعية للإنسان، ففى معاملة الفرد مع الآخرين قد يتسم سلوكه بالسادية أو الماسوكية وقد يتحول السادى إلى ماسوكى فى بعض المواقف وقد يكون العكس صحيح فى مواقف أخرى.

ويتحول الضعف والإحساس بالمهانة أحياناً إلى العدوانية، فالإنسان المصاب بعاهة جسدية أو نقص فى شخصيته مع الإحساس ببعد زملائه ومجتمعه عنه قد يستعمل السلوك العدوانى لتعويض نقصه ولتأكيد ذاته ولجذب أنظار الآخرين. . كما يوجد نوع آخر من السلوك العدوانى وهو ما يسمى بعدوان اليأس. . إن الإنسان المحكوم عليه بالموت أو بالسجن مدى الحياة أو الذى لا يجد أى فائدة من حياته يكون من السهل عليه انتهاك حرمات الغير والتعدى عليهم، فالإنسان اليائس يكون فى موقف لا يخسر فيه إذا فشل ولكن سيكتسب شىء ما إذا نجح حتى لو كان هذا الشىء الانتقام من المجتمع الذى فرض عليه موقف اليأس.

ليس دائما تكون نتائج القصور والإحساس بالضعف والحاجة سلبية، فهذا الشعور يمكن أن يتحول إلى حافز للتطور والترقى. ذكر أدلر: « أن الشعور بالقصور ليس فى نفسه أمراً شاذاً، بل هو العلة فى كل تقدم وصل إليه الجنس الإنسانى، بل إن العلم نفسه، لا يمكن أن يقوم إلا إذا استشعر الناس جهلهم وحاجتهم لكشف حجب المستقبل، وهو نتيجة تشوق الناس لتحسين حالهم ولزيادة معرفتهم بالكون وسيطرتهم عليه، حتى أنه ليخيل إلىّ أن كل الثقافة الإنسانية تقوم على الشعور بالقصور».

ماذا يدفع الإنسان إلى العنف والعدوان؟ وماذا يدفعه إلى الخنوع والاستسلام؟، اختلف علماء النفس فى الدوافع والأسباب، هل هى غرائز وراثية ولد بها الإنسان؟ أم تراكم تجارب وخبرات مكتسبة عبر سنوات العمر منذ طفولة الإنسان؟، ينسب الرأى الأول السلوك العدوانى إلى غرائز الكراهية، والفردية، والموت، فالغريزة الأولى تدفع الإنسان إلى كراهية الآخرين ، أما الغريزة الثانية فهى تدفع الإنسان إلى الاعتداد بالذات والتنافر من ما هو دون الذات ما دام يوجد مصالح متعارضة مع الآخرين، فاحتياجات الإنسان كثيرة وتطلعاته كبيرة ويحد المجتمع من خلال أفراده طموح وتطلعات الفرد، فينبع الشعور بالكراهية والنفور من أفراد هذا المجتمع الذى يقف فى طريق إشباع احتياجاته ونزواته وشهواته، فهذا المجتمع قد سن القوانين ووضع القيم التى تقيد الإنسان، كما أن التنافس مع الآخرين دائماً موجود فى العمل من أجل لقمة العيش وخارج العمل، من أجل أنثى أو من أجل التفوق فى الأنشطة المختلفة للإنسان كالنشاط الثقافى، أو العلمى أو الرياضى، التصادم والتنافس لا ينتهى طالما وجد الإنسان فى مجتمع يعيش بداخله.. تعتبر غريزة الموت هى نهاية الصراع والقتال والمخاطرة لإثبات الذات ونيل اعتراف وتقدير الآخرين، فالموت قادم لامحالة (وإن كان من الموت بدا فمن العار أن تموت جبانا) ، فهذه الغريزة تدفعنا إلى الخوض فى الأهوال بعنف وعدوانية.

ينسب السلوك الخنوعى الاستسلامى إلى عدة غرائز وعواطف منها غريزة الاجتماع، وغريزة حب البقاء، وعاطفة الحب.. لكى يعيش الإنسان فى مجتمع فلابد له أن يتنازل ولو جزئياً عن ذاته الفردية، وعن جزء من طموحه واحتياجاته حتى لا يلفظه المجتمع ويفقد حب الآخرين، كما يرضى الإنسان ببعض الاستسلام أو الاستخدام من الآخرين حتى يشعر باحتياجهم الدائم إليه، فالإنسان فى العادة ينجذب إلى من يستطيع أن يستفاد منه حتى فى مجرد الاستماع إليه لتفريغ طاقته الانفعالية ، فالمستمع يضحى بجزء من وقته من أجل الاستماع ومن أجل التسرية والمشاركة مع الآخر، قد يضحى بعائد مادى من فرصة أخرى غير الاستماع أو يضحى بوقت ضائع يمكن الاستفادة به فى إشباع هواياته.. أما غريزة حب البقاء فهى التى تدفع الإنسان إلى الخنوع إذا وجد أن تكملة الصراع قد يؤدى إلى الموت،

فالبديل الآخر للصراع هو القناعة بالاستسلام ووقف الصراع أو حتى الرضا بأن يصبح عبداً للمنتصر. وفى الحب يستسلم الإنسان دائماً أو جزئياً إلى من يحبه، قد يفقد كرامته أو ماله ولكن لا يرضى أن يفقد من يحبه، عاطفة مركبة، خنوعية ومستسلمة.

إن الدافع العدوانى أو الخنوعى عند عالم النفس سيجموند فرويد يتمثل فى الرغبة السادية أو الرغبة الماسوكية وكلاهما يرتبطا باللبيدو أو الطاقة الشهوائية الجسدية الجنسية.

فالإنسان السادى يجد لذة فى تعذيب الآخرين ولذة فى السلوك العدوانى، أما الماسوكى فيشعر بهذه اللذة عندما ينصب عليه هذا العدوان، وكلاهما يصلا إلى أقصى درجات الشهوة عند العدوان أو الخنوع.

ان اكتساب السلوك العدوانى ينبع عن عدم إشباع احتياجات ورغبات وطموح الفرد - وما أكثر احتياجات الإنسان - وبيئة عدوانية محيطة بالفرد تتسم بالعنف، يؤدى امتزاج هذين السببين إلى السلوك العدوانى والميل إلى الصدام والعراك، أما السلوك المعاكس للسلوك العدوانى فينشأ عادة من بيئة اجتماعية تفى باحتياجات ومطالب الفرد، بيئة متساهلة مرنة ليس طابعها العناد، بيئة متفتحة غير منغلقة أسلوبها التفاوض والمساواة بدلاً من الصدام والصراع، هذه البيئة تؤدى إلى سلوك طيب متسامح للفرد ولكن قد تؤدى أيضاً إلى الخنوع والاستسلام فى حالة التطرف فى التسامح والتساهل.

لم ينكر عالم الاجتماع البريطانى أنطونى جيدنز وجود علاقة بين الحرب والقوة وبين الذكورة، ولكنه ذهب إلى أن الحرب ليست توسيعاً لعدوانية عامة، بل مقترنة بظهور الدولة.. إن كثيراً من الرجال لا يحبذون الحرب ولكن يخوضونها كواجب وطنى، بدأت الأنثى فى العصر الحديث الاشتراك فى الخدمة العسكرية خاصة فى البلاد الغربية، واشتركت فى كثير من الحروب الحديثة التى أصبحت فيها القوة الجسدية لا تذكر بالنسبة لتكنولوچيا التحكم عن بعد.. إن حمية القتال والميول إلى

العنف كائن فى الجنس البشرى بنوعيه وإن كان بدرجة أكبر فى الإنسان الذكر، إلا أن الأنثى فى أحيان كثيرة تكون أكثر عنفاً واستعداداً للقتال والصراع عن الذكر، فالأنثى لها قدرة نفسية أكبر من الذكر فى الاحتمال وبحكم تكوينها البيولوچى تمر بها دورات تكون فيها أشد عنفاً وعدوانية.

كيف يبدأ السلوك العدوانى ؟ فى العادة يبدأ السلوك العدوانى من الشعور بالإحباط الذى يواجه الإنسان من عدم تحقيق رغباته واحتياجاته وعدم إشباع غرائزه، بدءاً بالاحتياجات الأولية مثل الأكل والشرب والنوم والجنس وكذلك الغرائز الأساسية مثل غريزة حب البقاء والدفاع عن النفس كرد فعل لسلوك عدوانى ناتج من إنسان آخر . . كما يوجد حافز يصعد ويقوى اندلاع السلوك العدوانى وهو النظرة التباينية بين إنسان وآخر، أو بين مجموعة وأخرى، أو بين شعب وآخر. . فإحساس التعالى والتفوق الذى يوجد عند بعض البشر يولد السلوك العدوانى كما تتولد الطاقة الكهربية من فرق الجهد فيسرى التيار الكهربى بين القطبين، أيضاً يسرى التيار العدوانى من السيد القوى المتفوق (أو من يحسب نفسه كذلك) إلى العبد الضعيف الخانع (أو من يحسب نفسه كذلك) فيبدأ الصدام من سلوك عدوانى وعنف إلى حرب وقتال.

تأثر ثقافة الإنسان ومعتقداته أو ثقافة الشعوب بصفة عامة فى شدة أو ضعف السلوك العدوانى أو السلوك الانهزامى الخنوعى، فنجد فى الجزء الخاص بالعبودية فى العصور القديمة أن حضارات وثقافات وديانات قديمة قد قامت على العدوان والاعتداء على أرواح وممتلكات الغير، كما أن القبائل العربية فى عصور ما قبل الدعوة الإسلامية والقبائل الأوروبية فى العصور الوسطى كانت تتفاخر بغزوها للقبائل الأخرى وعدد الأسرى والقتلى من جانب الطرف الآخر.

قد يأخذ السلوك العدوانى شكل مباشر ضد الشىء الذى تسبب فى الإحباط، أو ضد ما يرمز إليه هذا الشىء، فقد يتشاجر العامل مع رئيسه فى العمل فيسب العمل نفسه كرمز لرئيسه المتسبب فى الصدام وقد يفشل الطالب فى تعليمه فيصب

سلوكه العدوانى على مدرسيه أو على المدرسة أو المعهد الذى يتعلم فيه، ويسمى هذا السلوك بالسلوك العدوانى الإبدالى. . إن الكاتب أو الرسام الذى يصب جام غضبه فى شخصية مكتوبة أو مرسومة قد يقصد بها شخصيات حقيقية فى واقعه الاجتماعى يريد الاصطدام بها ولكن أسباب كثيرة مثل المركز الاجتماعى أو الخوف من العقاب قد يمنعه من الخوض فى صدام يسبب له الضرر المادى أو المعنوى. . أيضاً تعتبر عملية إسقاط ما يراه الفرد معيباً فى سلوكه على الآخرين آلية يحمى بها نفسه من رد الفعل تجاه عيوبه . . لقد تعود الإنسان فى إيجاد المبررات الكثيرة تجاه سلوكه المشين فالقيم والمعايير الأخلاقية تعتبر نسبيه يضعها الإنسان حسب هواه ووفقاً لمصلحته الشخصية.

الأكثر احتمالا أن السلوك (العدوانى / الخنوعى) ناتج من كل من العوامل الوراثية الكامنة فى جينات الإنسان والعوامل البيئية التى يكتسبها الإنسان منذ ميلاده فى المنزل وفى حياته الدراسية والعملية، وكنتيجة للتطور فى تكنولوچيا الاتصالات والانفتاح فى مجال الأعلام فإن التأثير البيئى يشمل حالياً جميع ثقافات كوكبنا الأرضى، فالعنف السائد فى الأفلام أو المسلسلات التى تنتجها الولايات المتحدة الأمريكية وتبثها الأقمار الصناعية فى جميع بقاع الأرض تؤثر على الثقافات الشرقية بجانب الثقافات الغربية، كما يبهر البث المباشر للمعارك الحربية الشباب المتعطش إلى العنف والعدوان.

يمكن للفرد خاصة الشباب التنفيس والتفريغ عن شحنة العنف الزائدة وعن الطاقة العدوانية المكبوتة داخله من خلال مجالات أخرى كالرياضة البدنية عامة أو الرياضات العنيفة مثل الملاكمة والمصارعة خاصة. . كما تقوم الحروب بنفس المفعول بالنسبة للمجتمع أو الدول، فالمجتمع هو محصلة أفراد، فى المستقبل إذا سادت السياسة الديمقراطية اللبيرالية دول العالم كما نوه الكاتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما فى كتابه «نهاية التاريخ - وآخر البشر» فقد تتجه الدول إلى مناغشة بعضها البعض أو الخوض فى غمار الحرب قتلا للملل ورتابة الحياة المستقرة، أيضاً قد يحدث تفكك داخلى للمجتمع أو لدولة ما نتيجة لانتشار السلوك الخنوعى وسيادة

الروح الانهزامية المستسلمة، فتكون الدولة فريسة سهلة لدولة عدوانية مغتصبة. . إن شيوع التفرقة بين طبقات المجتمع، ووجود سياسة القهر والطغيان والديكتاتورية تؤدى إلى خنوع عامة الشعب فيتحول الشعب كله إلى شعب خامل مستسلم يسهل السيطرة عليه من أى قوة داخلية أو خارجية.

يختلف التأثير الغريزى أو التأثير البيئى للعدوان أو الخنوع من شخص لآخر، فالشخصية الإنسانية لها صفات الانفرادية ، قد يختلف سلوك الأخوات، وقد تؤدى نفس المعاملة أو نفس التربية الشخصية إلى نتائج مختلفة. . لقد بنى الكون على التضاد والتباين فى السلوك وفى الشخصية الإنسانية، لكل من العنف أو الخنوع مدى يتغيرا فيه، فيوجد العنف الدائم والعنف الموقفى، كما يوجد العنف الشديد والعنف البسيط، والخنوع أيضاً قد يستمر عند فرد لفترة أو قد يثور الإنسان على نفسه ويتغير سلوكه من الخنوع إلى الاعتدال أو حتى إلى العنف والعدوان.

إن الإنسان السوى هو من يمتلك كل من السلوكين العدوانى/ الخضوعى، ولكن يتحرك السلوك فى منطقة الوسط بين العدوان والخضوع، والإنسان السوى هو الذى يستطيع أن يتحكم إلى حد ما فى سلوكه الانفعالى أو الخضوع بحيث لايتطرف السلوك العدوانى فيفقد حب أو احترام المجتمع أو يفقد حريته أو حياته إذا زاد العنف، وكذلك لا يتطرف السلوك إلى الخضوع فيفقد الإنسان ذاته وحريته وكرامته.

إن الإنسان العدوانى الطبع يضيف إلى المؤثرات الخارجية الوقتية للعدوان تراكمات نفسية سابقة فلا يأتى رد الفعل المثير للعنف والعدوان بل زائد عليه طبع عدوانى كامن داخله، أما الشخصية الخنوعية فتلتمس الأسباب والذرائع للتطرف فى الاستسلام، فمع قليل من الصدام ترفع الشخصية الخنوعية الراية البيضاء وتستسلم ، فهى شخصية تميل إلى العبودية وعدم تحمل المسئولية وتهرب من الصدام والصراع.

العنف قائم والخضوع قائم وليس بمقدور الإنسان أن يعيش بدونهما، بل إن عالم النفس سيجموند فرويد يرجع أساس التطور الحضارى إلى العنف وسياسة العدوان، فالقوانين التى تسن والنظم الاجتماعية التى توضع ما هى إلا تنظيم

العلاقات بين الأفراد وبعضهم البعض، وبين الدول وبعضها، كما أن المفروض فيها أن تتحكم فى عنف الإنسان بحيث ألا يَضر أو يُضر .

يرى بورهوس فردريك سكينر أستاذ علم النفس ورائد علم هندسة السلوك البشرى: « إن صراع الإنسان من أجل الحرية لا يتم بوازع داخلى، أو إرادة تسعى إلى التحرر، إنما هو رد فعل لمؤثرات البيئة، إن البشر مشغلون "بوهم الحرية" الذى يطمس من أمامهم رؤى المستقبل، وكلها لا تشمل تحرير الناس من السيطرة، بل تقوم على تحليل وتغيير أنواع وأشكال التحكم فى سلوكهم» . . كما يرى سكينر أن مايحتاجه البشر هو المزيد من السيطرة وليس العكس، كما رفض فكرة قدرة الإنسان على إصدار قرارات نابعة من إرادته دون تأثيرات خارجية، باعتبارها خداعاً بشرياً غير مفهوم.

تعرف الإرادة بأنها الطاقة الحيوية التى تدفع الإنسان للوصول إلى ما يصبو إليه ويتمناه، متغلباً على الصعوبات والمقاومات الخارجية والداخلية. تتمثل المقاومات الخارجية فى البيئة الخارجية، الطبيعية منها والإنسانية، فالطبيعة بقوانينها الفيزيائية قد تعاكس ما نخططه للمستقبل. قد نخطط لقضاء وقت ممتع فى السفر إلى مدينة ساحلية أو جبلية للاستمتاع بالطبيعة ، ولكن التغيير فى حالة الطقس قد يجعلنا نعيد التفكير فى العدول عن خططنا فالطبيعة الخارجية عامل هام فى تشكيل قدر الإنسان. والآخرين من البشر لهم اهتمامات قد تحثهم على مقاومة ما نبذله من جهد للوصول إلى أهدافنا . . أما المقاومات الداخلية فتتمثل فى تضاد الغرائز الفطرية، فالإنسان يريد التملك وفى نفس الوقت يتطلع إلى الراحة، اهتمامات تسير فى اتجاهات مختلفة، تتطلب منها أخذ القرار، ثم السعى للتحقيق، متخذين قوة الإرادة، كطاقة دافعة للوصول إلى الهدف. . يبرز السؤال التقليدى المصاحب لكل دراسة أو تحليل للسلوك الإنسانى ودوافعه ، والذى ينطبق أيضاً على قوة الإرادة، فهل هى فطرية أم مكتسبة؟ لكل من الإجابتين أنصار ومدافعين، وطبيعى أن يظهر رأى ثالث يعزز فيه مؤيديه إلى أن قوة الإرادة نابعة من الفطرة ومكتسبة أيضاً من التجارب الشخصية للإنسان. . من خلال قوة الإرادة نستطيع الوصول إلى أهدافنا، نستطيع أن نعدل من سلوكنا فى

أى سن من عمرنا، يمكن تحويل سلوكنا العدوانى إلى سلوك خضوعى، أو تعديل السلوك الخضوعى إلى سلوك عدوانى إذا لزم الأمر للدفاع عن ذاتنا ومجتمعنا.. يمكن أن تقوى الإرادة بالتمرين على العصيان الإرادى ، العصيان أمام الذات أولاً، بحرمان النفس مما تشتهيه، ثم العصيان أمام الآخرين، بالتمرد والمواجهة، بالمخاطرة والكفاح.

متماشياً مع تضاد وتباين النظام البشرى، يجىء التكيف فى الاتجاه الآخر للعصيان والتمرد. ينقسم التكيف إلى تكيف شخصى، وتكيف اجتماعى.. عرف الدكتور مصطفى فهمى شطرى التكيف فى كتابه "التكيف النفسى": « بالنسبة للتكيف الشخصى، هو أن يكون الفرد راضياً عن نفسه، غير كاره لها أو نافر منها أو ساخط عليها، أو غير واثق فيها. كما تتسم حياته النفسية بالخلو من التوترات والصراعات النفسية التى تقترن بمشاعر الذنب والقلق والضيق والنقص والرثاء للذات.. إن الأساس الأول لعدم التكيف الشخصى هو وجود حالة صراع انفعالى يعانى منها الفرد وجهات مختلفة. لا توجد حالة من حالات الصراع، إلا إذا تعرض الإنسان إلى حالة من حالات المنع أو الصد أو الإحباط، ويعرف الإحباط بأنه العملية التى تتضمن إدراك الفرد لعائق يحول دون إشباع حاجاته ودوافعه، أو توقع الفرد حدوث هذا العائق فى المستقبل.. أما التكيف الاجتماعى فهو عملية تتم داخل إطار العلاقات الاجتماعية التى يعيش فيها الفرد ويتفاعل معها، سواء كانت هذه العلاقات فى مجتمع الأسرة أو المدرسة أو الرفاق، أو المجتمع الكبير بصفة عامة».

مسكين أنت أيها الإنسان، مطلوب منك شحذ قوة الإرادة، لتقاوم وتكافح وتناضل للوصول إلى أهدافك، مطلوب منك العصيان والتمرد إذا زادت الإساءة إليك أو خسرت من مسايرة الآخرين ومطلوب منك أيضاً التكيف مع الذات لتعيش بدون توتر أو صراعات نفسية، وكذلك التكيف مع المجتمع بأن تلتزم بأخلاقياته، تمتثل لقواعده ونظمه وقوانينه، وتجارى أفراد الأسرة، والعمل، والمجتمع ككل حتى تصبح جزءاً من تكوينه الاجتماعى.. الآخرين يضغطون عليك، وأنت تضغط على الآخرين، ومن هذه الضغوط المتبادلة يحدث التفاعل الذى يعتبر أساس ديناميكية النظام البشرى الشامل، القائم على الشد والجذب، وعلى الطاعة والعصيان، وعلى

الخضوع والعدوان، تضاد وتباين فى جميع الاتجاهات التى تغطى كل إحداثيات الفراغ الذى نشأنا فيه لنملؤه بحيوية لحركة، وسكون الراحة.

وصف الدكتور أحمد عكاشة النظرية الفسيولوچية للعنف والعدوان فى كتابه "علم النفس الفسيولوچى" :« تدل الأبحاث الحديثة على أن اللوزة فى المخ، والجهاز الطرفى فى السطح الأنسى فى المخ مع التنبيهات الكهربائية لأجزاء من الهيبوثلاموس بعلاقة العنف والعدوان بهذه المراكز فى المخ، وأنه لولا الاعتبار الخلقى لأمكن وضع حوالب مشعة فى هذه المراكز لعلاج السلوك العنيف المرضى».. نوه الدكتور عكاشة على أن احتساء الخمور وتعاطى المخدرات يلعب دوراً هاماً فى نشأة العنف حيث يتجمد النقد الذاتى، ويفقد الفرد القدرة على التحكم فى ذاته، كذلك فإن بعض الأقراص المنبهه للجهاز العصبى تؤدى إلى السلوك العدوانى.. ويبّن بعض علماء علم النفس أيضاً أن ميل الذكور إلى السيطرة والعنف والحيوية راجع إلى اختلاف الجنسين فى الوظائف الفسيولوچية والتكوين الكيميائى لبعض الإفرازات.

يسبب الإدرينالين (Adrenaline) جميع التأثيرات المقترنة بالخوف والإثارة، كسرعة النبض والتنفس السريع، ويطلق على مفعول الأدرينالين برد الفعل القتالى أو الذعرى.. والإدرينالين هرمون (Hormone) يفرز فى حشوة الغدتين الكظريتين، ويقف إفرازه متى استحث جهاز الأعصاب السمبتاوى، ووظيفة هذا الهرمون هو استثارة الجسم وحفزه إلى النشاط والحركة، والهرمون بصفة عامة عبـ ة عن مواد تطلقها الغدد الصماء فى مجرى الدم، وتفرز بكميات ضئيلة ولكنها تتحكم فى أعضاء معينة من الجسم، ويعمل الهرمون بالتعاون مع الجهاز العصبى لتوجيه معظم وظائف الجسم.. أما الجهاز العصبى (Nervous System) فهو يتضمن جهاز الدفاع العصبى المركزى، والحبل الشوكى ، مع فروعها من الأعصاب المتشعبة فى جميع أجزاء الجسم، وهو مكون من خلايا تبعث برسائل فى شكل نبضات كهربائية، وبذلك يتحكم الجهاز العصبى فى جميع حواسنا، ويمارس عملية الإشراف والتوجيه لكافة أعضاء الجسم.

استخدم حكم الطغيان والاستبداد وسائل عديدة للسيطرة على المعارضين خلاف العقاب البدنى والتعذيب الجسدى، ومن هذه الوسائل عزل الفرد عن الحياة العامة بزجه فى زنانة بعيداً عن كل مصادر المعلومات وصور الحياة العادية لمدة طويلة، فيشعر الفرد بالوحدة والقلق ويناله الضعف والوهن، ويسهل حينئذ السيطرة عليه. ويستخدم الإجهاد والجوع وعدم النوم أيضاً لدفع المعارض إلى الانهيار والجنون، أو إلى الانتحار حيث يحدث تشويش لملكاته العقلية ويفقد الإحساس والتميز.

يعتبر الإذلال وسيلة أخرى للضغط النفسى مارستها نظم ديكتاتورية كثيرة، فالاعتداء الجنسى على الزوجة أو الابنة أو على الفرد نفسه يحطم من كبريائه ويحوله إلى عبد ذليل، خانع مطيع.. وفى هذا المجال برع واشتهر العالم الروسى بافلوف فى استخدام الوسائل الفسيولوچية للسيطرة على عقول الناس وتحويل معتقداتهم، بعد إجراء تجارب على الكلاب بتعريضها لتوترات مؤلمة، وظهور نظرية "الفعل الشرطى المنعكس" كنتيجة لمؤثر خارجى مثل سيل اللعاب عند رؤية الطعام مع اقترانه برنين جرس. مع تكرار التجربة، ارتبط سيل اللعاب برنين الجرس دون ظهور الطعام.

بدأ بافلوف تجاربه على الكلاب، وبعد أبحاث امتدت إلى ثلاثين عاما توصل إلى أنه يوجد أربعة أمزجة أساسية فى الكلاب تقترب كثيراً من مثيلاتها فى الإنسان:

١ - النمط شديد الإثارة (Strong Excitatory):

إذا تعرضت الكلاب من هذا النوع إلى الإثارة فإنها تتحول إلى درجة كبيرة من الوحشية ويحدث لها ردود أفعال تجعلها غير قابلة للانقياد.

٢ - المزاج النشط (Lively Sanguine):

يتصف هذا النوع من الكلاب بمزاج أكثر اتزاناً، فعندما تتعرض الكلاب من هذا النوع لمؤثرات خارجية، فغالباً ما يمكن السيطرة عليها إلا أنها فى بعض الأحيان تسلك سلوكاً عدوانياً.

٣ - المزاج الوديع (Imperturbable):

يقابل هذا النوع من الكلاب المنبهات بسلبية.

٤ - المزاج الضعيف المكبوت (Weak Inhibitory):

يميل هذا النوع من الكلاب إلى السلبية الزائدة وتفادى المنبه، فإن أى ضغط يتعرض له يسبب فقد توازنه وتوقف وظائف مخه.

تم تطبيق أبحاث بافلوف على الإنسان، إما باستخدامها فى تهدئة الفرد المتوتر عصبياً ونفسياً، أو بخلق التوتر للفرد المعارض حتى يسهل استسلامه والسيطرة عليه، وإخضاعه للتوجيهات، انتقد بعض العلماء أعمال بافلوف من منظور أنه من غير الممكن محو كل شىء من العقل، وتغيير الشخصية تغيراً شاملاً بالتعرض للضغوط.

طرح أستاذ علم النفس السلوكى الأمريكى ب.ف سكينر قضية تشكيل البشر (People Shaping) بتسائله: « ترى ماذا يمكن أن يصنع الإنسان بأخيه الإنسان إذا ما صار بين يديه عجينة - كتلة رخوة - سهلة التشكيل والتغيير»، وهل الإنسان فعلاً سهل التشكيل كما يرى الكاتب الأمريكى فانسى بكارد فى قوله: « إذا أمعنا النظر فى معظم الافتراضات والإطروحات العلمية المذكورة للصور التى يمكن أن يكون عليها الإنسان ، لبرز خيط واحد مشترك، هو نفس الخيط الذى ظهر أثناء دراسة المحاولات الرائدة فى مجالات بيولوچيا التناسل والجراحات العقلية، وهو خيط يفضى إلى افتراض سائد مفادة أن البشر ليسوا أكثر من مخلوقات لينة طيعة، مرنة بدرجة لا حد لها، أقرب إلى المادة الرخوة، سهلة التشكيل كالصلصال، وبالتالى مادة خام صالحة للتحوير والتبديل والتطوير سواء لما فيه صالح الإنسان ذاته، أو حتى لإجباره على المواءمة مع الآخرين، وقد ثبت أن من يصلح عادة للتشكيل وفق القوالب المرغوبة يكون أقل الناس تماسكاً، وأكثرهم قياداً، وأسلسهم انقيادا».

تعتبر الهندسة الوراثية أو هندسة الجينات علم حديث يمكن استخدامه فى العديد من المجالات التى تختص بالإنسان وسلوكه وانفعالاته.. عكف علماء الهندسة الوراثية حديثاً على دراسة الجين (Gene) الذى ينقل الصفات الوراثية من الجدود

والأباء إلى الأبناء، يتكون الجين من بروتين ومادة تسمى(De Oxyribo Nucleic Acid) أو ما تسمى اختصاراً بالدنا (DNA) ، والتى تعتبر المادة الوراثية لجميع صور الحياة، يتكون الدنا من نيوكليوتيدات تحتوى على ثلاث مكونات وهى السكر الخماسى (دى أكسى ريبوز) ، ومجموعة فوسفات، والقواعد النتيروچينية. يوجد الدنا فى النواة فى صورة صبغيات، وكل صبغى يحتوى على جزىء واحد من الدنا، وتحتوى الخلية الجسدية للإنسان على أربعة وستون صبغى.

استخدمت هندسة الجينات أو ما يسمى بجينوميا الجريمة للتعرف على السلوك العدوانى للإنسان، وقد أظهرت الدراسات أن بعض الناس لديهم استعداد وراثى للعدوان، وأن قليلاً من التوتر أو الإثارة الخارجية تجعلهم يميلون إلى العنف والعدوان، أجريت كثيراً من الأبحاث لتغير السلوك الجينى العدوانى من خلال ثلاث تقنيات ، تختص الأولى بإدخال جينات معدلة لسلوك الجينات العدوانية عن طريق إدخال جينات لها القدرة على العمل العكسى للجينات ذات السلوك العدوانى، وبذلك يمكن الوصول بالسلوك الجينى إلى حالة التوازن، أى رد فعل سوى فى حالة الإثارة الخارجية المسببة للسلوك العدوانى . . أما التقنية الثانية فهى خاصة بإدخال جينات كمون وراثى بهدف إجبار الأطقم الوراثية ذات السلوك العدوانى على الدخول فى مرحلة كمون وراثى لمدة معينة. وتختص التقنية الثالثة باستبدال الجينات ذات السلوك العدوانى بجينات ذات سلوك سوى، حيث يتم استئصال الجينات ذات السلوك العدوانى باستخدام الجراحة الجينية، ثم يتم إدخال جينات ذات سلوك سوى تؤدى نفس وظائف الجينات المستأصلة مع خفض أو القضاء على السلوك الغير سوى.

الإنسان . . ما هو كطبيعة وسلوك؟ هل هو ذلك المخلوق الذى تحركه غرائزه كما يراه عالم النفس سيجموند فرويد، أو هذه الآلة المعقدة التى تحكمها الأنانية والعدوانية كما وصل إليه الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز، أو الإنسان هو كما يراه الفيلسوف الإنجليزى جون لوك ككائن عاقل مسئول عن تصرفاته ومتسامح مع الآخرين وقادراً على تصريف أموره إلى أن يثبت العكس، أو هو ذلك الكائن

(السوبر) الذى تمناه الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه، إذا كان الكاتب الأمريكى فانس بكارد قد سرد ست صور للإنسان فى كتابه "أنهم يصنعون البشر" ففى الإمكان ضم الصور المتشابه للوصول إلى أربع صور رئيسية بالإضافة إلى صورة خامسة مجمعة (الإنسان كمنظومة) هى أقرب إلى الواقع، لذلك الإنسان الذى عاش فى حيرة للبحث عن ذاته.

١ - الإنسان أسير عناصر الوراثة :

والذى تحركه غرائزه الفطرية الموروثة، داخله ذلك الوحش القبيح الأنانى العدوانى الذى قد يضطر لمسايرة الجماعة لتحقيق مطالبه وإشباع احتياجاته ، ومن أجل ألا يعيش وحيداً، وبداخله أيضاً ذلك الملاك الأليف المتسامح، الذى قد يضطر إلى أكل لحم أخيه من أجل حب البقاء، ومن أجل إثبات ذاته الفردية الأنانية.

٢ - الإنسان ناتج البيئة :

ويأيد هذا الرأى معظم علماء النفس السلوكى، الذين يرون أن سلوك الإنسان داله فى تراكم تجارب سنوات حياته، ويحركه تفاعل المؤثر والظروف، مع طبيعته التى تكونت من تجاربه السابقة.

٣ - الإنسان المخير :

القادر على التحكم فى مصيره، والذى يتمتع بإرادة حرة بالرغم من عوامل الوراثة والغرائز والبيئة.. ذلك الإنسان هو الذى يمكن أن يدرك أبعاد الموقف الذى يوضع فيه، ويتخذ القرار المناسب من بين البدائل المختلفة المتاحة لديه.. يقف وراء هذا الرأى الفلاسفة الوجوديين مثل جان بول سارتر.

٤ - الإنسان الآلة :

الذى يمكن تعديله أو ترميمه ، أو السيطرة عليه من خلال المعالجة الكيميائية، أو الهندسة الوراثية، أو العمليات الجراحية ، ويمكن وصف الإنسان بالآلة القابلة للبرمجة لتعديل سلوكه مثل الحاسب الآلى الذى يمكن التحكم فى أدائه عن طريق مكوناته المادية (Hardware) ، أو المكونات غير مادية (Software).

٥ - الإنسان كمنظومة (Human - being System) :

الذى يتفاعل فيه عناصره، التى تتكون من الغرائز الفطرية، وتجارب مكتسبة، وبيئة غير ثابتة، وثقافة متنوعة، وتباين وتضاد، وتطور تاريخى وحضارى، ومؤثرات خارجية، وظروف ديناميكية ، وكيمياء داخل الجسم تغيرها الانفعالات والزمن، وقدر خارج عن إرادة الإنسان، واختيار محكوم غير واضح حدوده. تنبع هذه المنظومة (النظام) من منظومة أخرى أعم وأشمل هى المنظومة الكونية أو النظام الكونى (Universe System) .

مازال طريق البحث طويلاً، ولا يدرى الإنسان ما سوف يأتيه المستقبل، فهل سيتم استعباد فرد أو شعب عن طريق التغير فى الجينات، أو سيتم استئصال الجينات ذات السلوك العدوانى فيصبح الجميع عبيد أو يتم استئصال الجينات ذات السلوك الخنوعى فيتحول الجميع إلى أسياد، الأفضل فى كون قائم على التضاد والتباين أن يظل نظامنا كما هو ، يوجد كل من السيد والعبد وبينهما السيد العبد يلعب على طرفى النزاع، فلن يجنى الإنسان من المثالية إلا الملل والرتابة .